مفهوم تطور الوعي الكتابي من اللغة القديمة إلى اللغة الحديثة

د .الباتول جاتو*

الملخص:

يقوم هذا المقال على إشكال أساسي؛ هو: ما مراحل نمو (مفهوم الكتابة) ? بمعنى تقديم كرونولوجية هذا المفهوم منذ التأسيس على مرحلة تشكله وامتداداته؛ كما تتبع المقال مجموعة من تمظهرات الكتابة ورصد لأنواعها وتلاوينها المختلفة.

الكلمات المفاتيح: الكتابة؛ اللغة؛ اللغة المنطوقة؛ اللغة المكتوبة.

Abstract

Of the research paper: This article is based on a basic problem. Him: What are the stages of development (the writing repressed)? In the sense that we present the chronology of this concept since its inception on the stage of its formation and its extensions; The article also followed a group of manifestations of writing and monitored its different types and colours.

Keywords: writing; the language; spoken language; written language.

* مختبر الديداكتيك واللغات والآداب والدراماتورجيا - كلية اللغات والآداب والفنون-القنيطرة

1- الكتابة: التعريف، النشأة والتطور

يقول" رولان بروطون" :"إذا كان تعدد اللغات حاجزا بينا من الحواجز دون تحقيق التواصل، فإن تعدد الكتابات الخطية يشكل حاجزا أكبر لا محالة [1]".

وينقسم العالم إلى مجموعات تواصلية مختلفة الخط، فنجد الخط اللاتيني والعربي والصيني واليوناني والسيريلي، الذي تبنته دول الاتحاد السوفياتي سابقا، الذي يتأصل عن السلافية القديمة. كما نعثر - علاوة على ذلك- على بعض الخطوط ذات الأصول المتشابهة، كالعبرية والأمهرية والإثيوبية...إلخ.

ومهما يكن من أمر هذه الخطوط، واختلافاتها أو تشابهها إلا أن مجموعة من الباحثين يعدون الكتابة ذات أهمية قصوى لا تقل عن الاستماع والتحدث والقراءة، واتصالا بما أسلفنا فيه القول، يحسن بنا أن نعرض للتعريف اللغوي للكتابة ثم للتعريف الاصطلاحي؛ لكيْ يتسنى لنا التوصل إلى تعريف إجرائي.

1-1 التعريف اللغوي للكتابة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة "كتب" :"الكتاب معروف والجمع كتب وكتب الشيء يكتبه كتبا وكتابة، وكتبه."[2]

وعرفها القلقشندي بقوله" :الكتابة في اللغة مصدر كتب يكتب كتبا، ومكتابة ومكتبة وكتبة، وكتبت البغلة ، إذا جمعت بين شفريها بحلقة أو سير أو نحوه، ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض.[3]"

وذكر ابن خلدون في مقدمته" بأن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية، وهي رسوم وأشكال حرفية على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس[4]".

إذن؛ فإن أصل مادة (ك، ت، ب) في لغة العرب - التي نزل بها القرآن الكريم- معناها الضم والجمع، فكل شيء ضممت أجزاءه بعضها ببعض فقد كتبته، ومنه قيل للكبكبة من الجيش كتيبة؛ لأنها طائفة من الجيش جمع بعض أطرافها إلى بعض كما قال النابغة الذبياني:

---

(1) رولان بارث، لذة النص، ترجمة: فؤاد صفا، حسين سبحاز، دار توبقال.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة (كتب)، دار صادر، بيروت.

(3) - القلقشندي، 2004، ج.1، ص، 51 .

(4) - ابن خلدون، 1984، ص. 417، انظر أيضا لسان العرب، ج 3، ص 216 والقاموس المحيط، ج1، ص 121 .

ولا خَيْرَ فِيْهِم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهم   بِهِنّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ(1)

ولذا قيل للخياطين :كاتبين، فالعرب تسمي الخائط كاتبا، وتسمي الخياطة كتابة؛ لأن الخياط يضم أطراف الثوب بعضها إلى بعض .وكذلك الخراز تسميه العرب كاتبا لأنه يضم بعض أطراف الجلد إلى بعض فيجمعها.

وفي لغة الحريري في مقاماته:

وَكَاتِبين وَمَا خَاطَتْ أَنَامِلُهم   حَرْفًا وَلا قَرَأوا مَا خُطّ فِي الْكُتُبِ.(2)

ويحدد (جون ديبوا) Dubois.J وآخرون في قاموس اللسانيات أن عبارة اللغة المكتوبة تحتمل معنيين مختلفين، إذ يدل المعنى الأول على مجموع الأشكال الخاصة التي تستعمل حين" نكتب "، أي حين نقوم بعمل" الكاتب" أوحين نحرر نصوصا تتطلب صورة خاصة في هذه الحالة، فاللغة المكتوبة، هي اللغة الأدبيةLittéraire ، كما نتعلم في المدرسة بأن بعض" الأشياء "التي نتلفظ بها لكننا لا نكتبها نحو ça الصيغة المنطوقة و celaالصيغة المكتوبة.(3)

أما المعنى الثاني؛ فيدل على الرسم الخطي في اللغة الشفهية أو المنطوقة، بيد أننا نشير في هذا الصدد إلى أن ليس كل ما يكتب ينطق وليس كل ما ينطق يكتب، نحو :عنبر، تكتب نونا وتحقق ميما، وعلى العموم فإن الأشكال المكتوبة، تتمتع بالقدرة على الاستقرار وإمكانية الانتشار أكثر من الصيغ المنطوقة، وقد كانت أساس تكوين اللغات الوطنية للدول الكبرى، مثل الألمانية في ألمانيا والنمسا وجزءا مهما من سويسرا، ويطلق عليها.(4)Schriftdeutsch.

وغالبا ما تتوافر اللغة المكتوبة على معجم مخالف لما هو عليه في اللغة المنطوقة، وخلافا لخطأ شائع، فإن اللغة الشفهية تعد أغنى – حسب جون ديبوا - من معجم اللغة المكتوبة، إذ تتميز المفردات الشفهية بغنى مترادفاتها الملفوظة، التي تفرق بينها الكتابة الإملائية، نحو: (Sot, seau,sceau, saut) وقد تكون الاختلافات أكثر أهمية ووضوحا بين المكتوب والمنطوق، مثلما نجد في اللغات الهندية والأوردية(hindi – ourdo) ، فهما لغتان متماثلتان في الاستعمال الشفهي، وتختلفان في المجال الكتابي، إذ توظف الأوردية الخط العربي ذي الحمولة الإسلامية، مما أحدث تطورا أصبحنا بموجبه أمام لغتين مكتوبتين مختلفتين، انطلاقا من لغة منطوقة واحدة، وعلى العكس من ذلك تمامًا، يمكننا

---

(1) كتاب شرح شواهد الشعرية في أمهات الكتب النحوية ج 1 ص 68.

(2) المكتبة الصوتية، Ibn – jebreen. Com . 28 – 06 – 2016 .

(3)ديبوا وآخرون (1973) ص، 173 – 174 .

(4) نفس المصدر .

أن نجد لغة مكتوبة تقابل مجموعة من الأشكال المنطوقة والمختلفة، وكما هو حال اللغة العربية في شكلها المكتوب والمسمى" العربية الأدبية"، التي تقع ضمنها مجموعة من الأشكال المنطوقة يطلق عليها" العربية اللهجية."

وفي هذا المجال فإن الحالة النمطية والدالة هي حالات اللغات الرمزية Idéographique مثل الكتابة الصينية التي يمكنها كتابة مجموعة من اللغات المختلفة تمام الاختلاف بالطريقة نفسها.

وعلى العموم، فاللغة المكتوبة عامل قوي وفعال في المجال الثقافي وفي دعم أسس وحدة البلدان، وناتج هذا التصور أن هناك خلطا بين الشكل المكتوب واللغة نفسها، وقد برز أيضا مصطلح آخر في هذا المجال المنطوق المكتوب Ecrit - parlé وهو يدل على نمط الخطاب الذي يتلوه أو يقرأه المتكلم انطلاقا من نص حرره هو أو غيره بشكل كامل، والمكتوب -المنطوق له أيضا قواعده الخاصة التي تميزه عن الملفوظات المنتجة شفويا، لكنها نصوص حررت لكي يقرأها المرسل لا لتنقل شفهيا.

1-2 التعريف الاصطلاحي:

الكتابة نظام يتمثل في مجموعة من الرموز المرئية أو المحسوسة ، التي تستخدم لتمثيل وحدات لغوية بشكل منظم بغرض حفظ أو ايصال معلومات يمكن استرجاعها بوساطة أي شخص يعرف هذه اللغة، والقواعد المنظمة لعملية الترميز المستخدمة في هذا النظام كما يقر بذلك (كولماس Coulmas (1989)[1].

ويمضي في الاتجاه نفسه (جون ديبوا)، وآخرون في تعريفهم الاصطلاحي للكتابة؛ إذ يعتبرها تمثيلا للغة المنطوقة بوساطة العلامات الخطية؛ فهي رمز تواصلي من الدرجة الثانية بالنسبة إلى اللغة، الرمز أو السنن التواصلي الأول بامتياز؛ فالكلام ينتشر عبر الزمان ثم يندثر، بينما تعتمد الكتابة كأس المكان الذي يحتويها وبالتالي يحافظ عليها .

ودراسة أنماط الكتابة المختلفة المخترعة بواسطة الإنسان لها علاقة ضيقة أو ضئيلة بدراسة اللغة المنطوقة أو المستعملة شفهيا وأيضا بتلك الدراسات التي انشغلت بالحضارات التي أنتجت هاته الأنماط من الكتابة.

ودراسة الكتابة ينبغي أن تتمفصل من خلال خطتين متوازيتين هما:

أولا: تهتم بدراسة تاريخ الكتابة منذ اختراعها إلى وضعيتها الحالية.

ثانيتهما: تهتم بالدراسة اللسانية التي تحاول استخراج قواعد استعمال وتوظيف الكتابة، فضلا

---

(1)فلوريان كولماس في كتابه دليل السيوسيوليسانيات، ترجمة: خالد الأشهب، ما+جدولين النهيبي، بردعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.

عن علاقتها باللغة المنطوقة.

إذن ثمة اتفاق مع التعريفين الواردين في هاته الفقرة، فقد عرفها شلبي (2007: ص137) بأنها : إعادة ترميز اللغة المنطوقة في شكل خطي على الورق من خلال أشكال ترتبط ببعضها، وفق نظام معروف ، تواضع عليه أصحاب اللغة في وقت ما؛ بحيث يعد شكلا من هذه الأشكال مقابلا لصوت لغوي يدل عليه[1]، وذلك بغرض نقل أفكار الكاتب وآرائه ومشاعره إلى الآخرين، بوصفهم الطرف الآخر لعملية الاتصال، وهذا الكلام يشابه التعريف الذي أورده رسلان (2005 ، ص205) وهي أيضا " كلمة تبرز على الورق - وعلى غير الورق - سواء ما كان منها من نتائج العقل الخالص ويقصد به الكتابة العلمية البحتة أو ما كان خالصا ويقصد به الكتابة الإبداعية، أو هي الحروف المكتوبة التي تصور الألفاظ الدالة على المعاني التي تراد من النص المكتوب.[2]"

كما يعرفها والي بأنها" :أداة من أدوات التعبير عما يجيش به الصدر، وترجمة للأفكار التي تعتمل في العقل، ووسيلة أداء لما بين الأفراد والجماعات والأمم والمجتمعات أو طريقة من طرق قضاء الحاجات.[3]"

وعرفها الناقة (2002) بأنها قدرة حركية +يدعمها إدراك بصري دقيق وتصور ذهني ثابت للشكل (خط وإملاء) ثم تصور عقلي للفكرة يدعمه وعاء لغوي سليم[4].

وخلاصة القول فإن المفهوم الاصطلاحي للكتابة يستمد تعريفه من خلال الاتصال بالكلمة المكتوبة، كما أن مفهوم الكتابة يتخطى النطاق الضيق الذي لا يتعدى حدود رسم الكلمات والحروف وإجادة الخط، وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن الكتابة تعتمد ركنين هما :الركن الآلي المتمثل في رسم الحروف وسلامة هجاء الكلمات، وهذا ما يطلق عليه - حسب الدكتور وجيه المرسى أبولين - جانب المهارة الحركية في الكتابة، أو الجانب الشكلي، أما الثاني :فهو الركن الفكري الذي يعكس التعبير عن الأفكار تعبيرا واضحا منظما، وبالتالي تتحدد الكتابة في كونها عملية معقدة في ذاتها، لها القدرة على تصور المعاني و الأفكار و نقلها عبر صور خطية.

1-3 نشأة الكتابة وتطورها :

(1) المصدر المشار إليه في متن النص.

(2) الكتابة الأكاديمية، بليغ حمدي إسماعيل، وكالة الصحافة العربية، 2022.

(3) المصدر نفسه ص 117.

(4) المصدر نفسه ص 117.

لقد تعاظمت أهمية الكتابة عند العرب وخاصة بعد ظهور الإسلام، وذلك لما فيها من مصالح دنيوية و دينية مهمة بينها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فقد أقسم جل وعلا بالقلم في قوله تعالى " : ن والقلم وما يسطرون "آية 1 سورة القلم، وتبدو أهميتها أيضا في تخصيص الكتابة بمهمة كبرى في الحياة اليومية ، حيث يقول سبحانه وتعالى في الآيتين 10 و 11 من سورة الانفطار" :وإنّ عليكم لحافظين، كراما كاتبين"، بل ذهب بعض الدارسين إلى أن الكتابة وحي من الله سبحانه وتعالى مصداقا لقوله":اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم "الآيات 3 و 4 و 5 من سورة العلق . وممن قال بتوقيفية الكتابة القلقشندي في كتابه" صبح الأعشى في صناعة الإنشا "، الذي أفرده للكتابة كصنعة، يقول":قيل بأن أول من وضع الخطوط والكتب كلها آدم كتبها في طين وطبخه، وذلك قبل موته بثلاثمائة سنة، فلما أظل الأرض الغرق أصاب كل قوم كتابتهم."[(1)]

وقيل أيضا :إنها أنزلت على أخنوخ) ، وهو إدريس عليه السلام، وقيل أنزلت على آدم في إحدى وعشرين صحيفة .كما يحتمل أن يكون بعض ذلك توقيفيا علمه الله تعالى بالوحي، وبعضه اصطلاحيا وضعه البشر.

وقد رفع من شأنها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث جاء في الحديث" قيدوا العلم بالكتابة."[(2)]

ومن ثم اهتم العرب بصنعة الكتابة حتى إنْ القلقشندي ضمن كتابه كل ما يتعلق بهذه الصناعة من فوائد وقواعد وبين فضلها على باقي الصناعات؛ حيث يقول في أحد المواضع" :و قد تنبه قوم بالكتابة بعد الخمول، و صاروا إلى أرفع المراتب العلية والمنازل السنية [(3)]"، وفي آخر يقول": الخط أفضل من اللفظ ؛ لأن اللفظ يفهم الحاضر فقط والخط يفهم الحاضر والغائب.[(4)] "

وعلى الرغم من هذه الأهمية الملحوظة للكتابة، فلابد من الإشارة إلى خصوبة الكلام البشري (لا نهائي (ومحدودية الكتابة؛ لكونها لا تعدو أن تكون أداة لتدوين بعض خصائص الكلام البشري بشكل محسوس يتمثل في معظم الأحوال من رموز بصرية .والسؤال الذي يتمركز في صلب هذه القضية ينطلق مما سلف وأن ما أشرنا إليه سابقا من خصوصية العلاقة بين المنطوق والمكتوب من حيث مجال وكينونة التمثيل البصري، وهل تمثل الكتابة توصيفا بصريا لأصوات الكلام أم لمقاطعه ....إلخ.

---

(1)- القلقشندي، صبح الأعشى، ج1 – ص. 42.

(2)- رواه الطبراني وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ج 1. ص 72.

(3)- القلقشندي، صبح الأعشى، ج1 – ص. 42 وما يليها .

(4)- القلقشندي، صبح الأعشى، ج3 – ص. 3.

1 - 3 -1 أصول الكتابة

يدقق (جون ديبوا) في قاموسه (1973)بأن لوروا غورهانLeroi – Gourhan حدد أصول الكتابة في حوالي خمسين ألف سنة قبل عصرنا الحالي، وبالتدقيق في العهد الموستيريMoustérien أي مرحلة ما قبل التاريخ التي ترقى إلى العصر الحجري الوسيط (خطوط عادة ما تنحت على الحجر أو العظم)، وحوالي ثلاثين ألف سنة قبل عصرنا الحالي بالنسبة إلى العصر الأورينياسي Aurignacien (رسوم منحوتة أومصبوغة)،وحوالي عشرين ألف سنة أصبح التمثيل الخطي سائدا، وحوالي خمسة عشر ألف سنة بلغت درجة من النضج و الإتقان مساوية أو شبيهة تقريبا بما هي عليه في العصر الحالي.

فالأشكال الخطية التي اشتهرت باسم الكتابة التصويرية Pictogramme كانت أول وأكبر اختراع للإنسان في مجال الكتابة، ويتعلق الأمر بنمط مرتبط بالفضاء أو المكان، فبعض من هذه الكتابات ستتطور نحو الخطية الصوتية phonétique Linéarité نحو ألفبائيات نتجت عنها على الأقل خطية السلسلة الكلامية و نظام الكتابة الصوتية .Phonétisme[1]

لقد أسلفنا القول :بأن مجموعة من الباحثين العرب القدامى جعلوا الكتابة أصلا أو منشأ توقيفيا وبأنها وحي من عند الله سبحانه وتعالى، مثلما ذهب بعضهم إلى احتمال أن يكون بعض ذلك توقيفيا علمه الله تعالى بالوحي، وبعضه اصطلاحيا وضعه البشر.[2]، أما بالنسبة إلى الكتابة العربية، فتكاد المصادر القديمة تجمع في رد أصلها إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام، فقد حكي عن ابن عباس أن أول من كتب بالعربية ووضعها إسماعيل ولد إبراهيم عليهما السلام .ويتفق مع هذه الرواية كثير من المصادر الأدبية والتاريخية الأخرى.[3] ونكتفي نحن بهذا القدر من الآراء لتماثلها في عدم استنادها إلى أدلة ملموسة ترقى بها إلى مصاف الآراء العلمية الموثقة.

إن الباحث في نشأة الكتابة وتطورها يصادف -على المستوى العلمي- مشكل الحصول على الدليل الملموس لتحديد أصل الكتابة، وسنحاول تقفي أثر نظام الكتابة إلى أقدم استخدام له بغية الحصول على فهم عملية تطوره.[4] فمثلا عند تفحص الكتابات المصرية القديمة، يجد الباحث مشكلة في دراسة تطورها، نظرا لأن أقدم ما أمكن الحصول عليه يمثل نظاما كتابيا يعتمد على تمثيل صوتي للمقاطع الصوتية مع بعض الرموز الدالة على كلمات تامة، لذلك فمن الصعب أن نثبت بما لا يدع مجالا للشك

---

(1) ديبوا وآخرون، ص، 175 وما بعدها.

(2) القلقشندي ، ن. م، ص. 6-7.

(3) رياض جنزرلي ومحمد سليمان، المرجع في الكتابة العربية، ص 28 – 30.

(4) محمد علي الخيري، نظام كتابة اللغات، ص. 5.

متى وكيف ظهر هذا النظام .

وبناء على ما سبق يمكن القول: بأن أغلب النظم الكتابية المعروفة لا يمكن إيجاد الدليل الكافي على نشأتها وبداياتها ثم تطورها.

ويؤكد محمد علي خيري (2006)بأن أي محاولة لتحديد نشأة الكتابة معرضة للتغيير في ضوء الاكتشافات التي قد تغير من فهمنا لما يمكن أن يكون أساسا لبدء نظام كتابة معين .فمثلا عندما نشر المستشرق Ignace Gelbاعمله في العام1963 عن تاريخ ونشأة الكتابة، أصبحت النظرية السائدة في دراسة الكتابة أن النظم الكتابية نشأت نتيجة لتطور طبيعي للرقي بالتعبير من استخدام الصور والرموز للدلالة على المعنى إلى استخدامها للدلالة على الأصوات، وأن السومريين كانوا أول من انتقل من استخدام الرمز الدلالي- الذي يحمل معنى لغويًا- إلى استخدام الرمز الصوتي، ومن ثم انتقلت هذه الطريقة إلى الشعوب المجاورة لهم التي كانت بحاجة إلى نظام للتدوين المرئي .بيد أن هذه النظرية واجهت مقاومة شديدة إزاء الاكتشافات الأثرية لبعض النقوش التصويرية التي لا تدل على معنى ملموس، وقد استطاع الباحث شمانت بسيرات Schmandt – Besserat أن يلحقها بكتابات سبقت النقوش المسمارية السومرية بردح من الزمن طويل، وهذا ما جعل الباحثين ينحون إلى تغيير منهجهم في البحث، فقد أقر جيلب Gelb بأن مثل هذه النقوش مصدر آخر للنظم الكتابية.

وبعد أخذ ورد وبعد الكثير من الجدل والنقاش أصبح من المسلم به أن كل ما يمثل علاقة بين الرمز والوحدات اللغوية) معنى – مقطع – صوت ... إلخ (يمكن أن يسمى كتابة ويستبعد كل ما خالف ذلك.[1]

1- 2-3 الكتابة العربية، نشأتها وتطورها :

مرت عمليات جمع اللغة العربية وتدوينها بمراحل عدة، بدأت بالرواية، فقد شهد لفظ" الرواية " تطورا لغويا من حيث دلالته إذ كان أصله في اللغة هو حمل الماء قال لبيد[2]:

فتو لهم فاتر مشيهم كراويا الطبع همت بالوصل[3]

ثم صارت تطلق على مطلق الحمل، قال زهير:

يسيرون حتى حبسوا عند بابه ثقال الروايا والهجان المتاليا [1]

(1) محمد علي الخيري، نظام كتابة اللغات، ص. 5..

(2)أساس البلاغة، مادة: روى.

(3) البيت ل شمس العلوم-نشوان بن سعيد الحميري-توفي: 573هـ/1177م.

وبعد ذلك أطلقت على سادة القوم؛ كونهم يقومون بأعباء غيرهم ويحملون عنهم الأثقال قال الشاعر:

لقيناهم فقتلنا الروايا وأبحنا الزوايا[2]

ثم أطلقت بعدئذ على النقل الشفهي من تداول للشعر والحديث والقراءات والأخبار واللغة[3]، وسبب وجود الرواية ناتج عن عدم انتشار الكتابة بين أوساط الناس وعامتهم في شبه الجزيرة العربية، فقامت الرواية على المشافهة لحفظ التاريخ والتراث، فصارت عادة لعرب الجاهلية وبعد ذلك لعرب صدر الإسلام فتقوت عندهم ملكة الحفظ، فكان أكثر ما يروى الشعر؛ لأنه ديوان العرب، وكان لكل شاعر راوية ينقل عنه الشعر ويذيعه بين الناس، وقد يصير الراوية شاعرا يروي عنه رواة آخرون، فلقد كان الحطيئة راوية زهير وكان زهير راوية أوس بن حجر، كما كان هدبة بن خشرم راوية الحطيئة و كان جميل راوي هدبة[3][4].

وهكذا كانت الرواية والمشافهة نمطا سلوكيا عربيا لحفظ التراث، واستمر هذا الوضع مع مجيء الإسلام بإدخال نوع من التحسين والضبط مما جعله موضع ثقة واحترام في حقل التدوين والتوثيق، فكان لا يؤخذ إلا من الثقات المشهود لهم بالأمانة والصبر والتحمل" ووصلوا في ذلك إلى درجة من الدقة والأمانة لم تصل إليها من قبلهم أمة من الأمم.[5]"

وتعني الرواية هي جمع المادة اللغوية من الناطقين العرب[6].

ثم جاءت الكتابة التي لم تكن منعدمة تماما في حياة العرب، فلقد عرفوها منذ ما قبل العصر الجاهلي و" خاصة في مراكز التحضر المختلفة آنذاك في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة العربية في شمالها الغربي وفي اليمن جنوبا وفي الحجاز أيضًا في مكة والمدينة.[7]"

وقد أشير إلى أن الأبجدية العربية نشأت في القرن الرابع الميلادي[8].

كما تؤكد ذلك النقوش المعثور عليها، أما في مكة، فقد عثر على نقش عربي عندما هدمت قبل الإسلام مضمونه) السلف ابن عبقر يقرأ على ربه السلام، كما أن العصر الجاهلي قد عرف الكتابة

---

(1) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ج 1 ص 187.

(2) المصدر نفسه.

(3) الشلقاني، رواية اللغة، ص. 37 .

(4)محمد عيد ، 1988 ، ص . 10 .

(5) تمام حسان، 2000، ص.81

(6)- محمد عيد، 1988، ص. 10.

(7)- عز الدين اسماعيل، 1981، ص.134.

(8)- ديرنجر، الكتابة، ص. 134.

والكتاب، والوثائق الدالة على ذلك أن قوما من طيء قد تعلموا الكتابة من كاتب وحي هود، أو أن طارئا من اليمن طرأ على أهل الحيرة .فتعلموا منه الخط، وأن عراقيا قدم إلى الحجاز فعلم الناس الكتابة، وأن من كتبة ذلك العهد بشر بن عبد الملك، وسفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وغيرهم.

ومن شروط الكلمة عندهم الكتابة، وأشعارهم تعج بذلك، فهذا أبو داود الكلبي يقول:

لمن طلل كعنوان الكتاب ببطن آفاق أو بطن الذهاب

وقول حاتم الطائي في هذا الباب:

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك في رق كتابا منمنما[1]

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى حدود نفي الكتابة العربية .جملة وتفصيلا، بل وضعوا لها حدا زمنيا متأخرا جدا، وهو ما بعد نهاية القرن الثاني الهجري[2].

وقد اختلف في الأبجدية التي دونت بها الكتابة العربية، فهي حرف كوني سرياني سطر نجيلي حيري، وعند آخرين خط ولد إسماعيل أخذته إياد ثم العرب وفي قول آخر، هو حميري حيري طائفي قرشي، وفي غيره هو نبطي خصص فيما بعد لكتابة القرآن الكريم[3] . ولا يستبعد أن تكون الأبجدية عربية لسانا ومكانا لرحلة خط المسند من اليمن جنوبا باتجاه الشمال عند الثموديين واللحيانيين والصفويين وانتشاره فيما بعد.

وأيا ما كان من شأن الظهور والتطور، فقد أشاد الإسلام بفضل الكتابة ونوه بذكرها وحث على نشرها ؛ وذلك لأن لها مرتبة رفيعة، اذا قال سبحانه وتعالى: "ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله.[4]"

كما أشار الجاحظ إلى أهمية الكتابة بقوله" :ولولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة، والحكم المخطوطة...لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ... إلخ.[5]"

لذا فإن أهم ما تتميز به الكتابة كونها لا تتعرض للتبديل والتغيير، وقابلة إلى الانتقال من مكان إلى آخر من دون أن تشوبها شائبة.

وقد اهتم الرسول -صلى الله عليه وسلم -بالكتابة حيث جعل فداء الأسير من كفار قريش ممن لم يكن لهم فداء أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فيعلم كل واحد منهم عشرة من المسلمين الكتابة .

---

(1)- ديوان حاتم طيء: ص: 42، انظر أيضا المفضليات، ص 26.

(2)- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، د.ت. ج8، ص 110 وما بعدها.

(3)- ابن النديم، الفهرست، ص 20 – 21، انظر أيضا: الصاجي: 36 والمزهر: 2/ 344

(4)- سورة البقرة الآية 282.

(5)- البيان والتبيين، ص. 47.

وفي هذا دليل واضح وبين على الاهتمام بالكتابة والحث عليها.

وهي -كما يشير إلى ذلك ابن خلدون في المقدمة- صناعة شريفة.

إذا، بعد الحديث عن أهمية الكتابة عند العرب وخصوصا مع مجيء الاسلام، نعود لمناقشة نشأة الكتابة العربية وتطورها.

فلقد كانت النقوش والآثار التي اكتشفت في أنحاء متفرقة من بلاد العرب، كما سنرى لاحقا الدليل الملموس الذي ساعد المختصين على تحليل تطور الكتابة العربية كما نعرفها الآن.

فمن المتعارف عليه تاريخيا أن حضارة العرب الأنباط الممتدة من البتراء في الشمال إلى مدائن صالح في الجنوب استمدت نظام كتابتها من الآراميين التي بدورها يمكن تتبع أصولها إلى الفينيقية ومن ثم الكتابة المصرية القديمة، كما يشير إلى ذلك محمد علي الخيري في مقاله حول موضوع نظام كتابة اللغات.[1]

ويدل على هذا الاستنتاج دراسة نقوش عدة لعل أهمها بالترتيب الزمني نقش على قبر بقرية أم الجمال غربي حوران يعود إلى 250 م ، ونقش قبر بالنمارة رفي جبل الدروز بسوريا يعود للملك المسمى امرؤ القيس بن عمرو يرجع إلى العام 328 م، ونقش حران في الشمال الغربي لجبل الدروز.[2]

وعند دراسة هذه النقوش استطاع الباحثون المختصون من علماء الآثار واللغويات إثبات حقيقة استخدام العرب للخط النبطي كأساس لأصوات العربية المعروفة لدينا مع إدخال التحسينات المتعددة على مر القرون إلى أن وصل نظام الكتابة إلى ما هو عليه الآن.

ونظرا لأهمية اللغة العربية على المستوى الديني واتساع انتشارها تبعا لانتشار الإسلام نرى أن الخط العربي ونظامه قد اتبع في كتابة العديد من اللغات البشرية بدءا باللغات الهندية والإندونيسية في أقصى الشرق وصولا إلى اللغات التركية قديما والفارسية في الشرق الأدنى، ومرورا أيضا بعدد من اللغات الأفريقية كالهوسا والسواحلية والبربرية[3] .زد على ذلك بعض اللغات الأوروبية القديمة ممثلة في البرتغالية والإسبانية والصربية والكرواتية[4].

3-3-1 ظروف تطور الكتابة

(1)- محمد علي الخيري، نظام كتابة اللغات، ص.8.

(2)- صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجري الأول الاسلامية، ص: 8.

(3)- محمود حمودة، دراسات في علم الكتابة العربية، ص 53- 54.

(4)- كولماس (1996)، ص 19.

إن التغييرات الملاحظة على مختلف أنماط الكتابة على مر التاريخ تعود إلى عوامل عدة، منها : الظروف الاقتصادية للمجتمعات، والتقدم الفكري وخاصة القدرة على التجريد والمعرفة التامة ببنية اللغة المستعملة، وحسب مايي Meillet فإن بنية اللغة، هي التي أثرت على كل تجديد أساسي في تطور الكتابة.

فهذا التطور يمضي من تمثيل رمزي للمدلول إلى رمز مكون من علامات مجردة ورموز لأصوات اللغة، وبالتالي فنظم الكتابة تنحو إلى تجريد أكثر فأكثر إلى أن تصبح رموزا حقيقية للتواصل، كنظام الكتابة الألفبائية الذي قطعت فيه العلامات كل صلة بمعنى الكلمة.

ويجمع الكثير من اللغويين المعاصرين أمثال غوار Guar 1992 وهاريسHarris 1986 ونيسن Nissen 1985 على أن الارتباط بين الرموز والوحدات اللغوية ثم بروز نظام الكتابة ابتدأ بتطور نظام العدد والحساب(1)؛

ففي البدايات الأولى كان الإنسان يستدل على العدد عن طريق السرد المتسلسل، فللدلالة على العدد ثمانية يرسم الشخص ثمانية رموز تمثل الشيء المعدود.

ونتيجة للتطور الحتمي للبشرية، أصبح العدد غير تسلسلي، ومستخدما لرموز ذات معنى، فللدلالة على العدد ثمانية نجد رمزا للعدد ثمانية يتبعه رمز الشيء المعدود، وفي هذا المثال نجد التطور من استخدام الرموز الملموسة إلى استخدام رموز ذات علاقات معنوية تمثل اللبنة الأولى لما نعرفه الآن من العلاقة بين الرمز ووحدات اللغة المعنوية.

إن مثل هذا التفسير المنطقي لبدايات الكتابة تم تطبيقه على كتابات حضارات عدة؛ لدراسة بدايات نظم الكتابة بدءا بالسومريين في أرض الهلال الخصيب وانتهاء بحضارات هنود المايا في الأمريكيتين(2).

وبناء على ما تقدم يمكن القول إن الكتابة بدأت تصويرية حيث كان الإنسان يصور الشيء أو الحادث الذي يريد تدوينه دون وجود علاقة صوتية أو رمزية بين المكتوب والمراد منه، وتعتبر السومرية في بداياتها مثالا لهذا النوع من الكتابات(3) .

ثم لم تلبث الكتابة أن انتقلت إلى طور التمثيل التصويري الرمزي، فأصبحت الرموز لا تستخدم فقط للدلالة على الأمور الحسية القابلة للتصوير، بل تعدتها للدلالة على الأمور المعنوية التي لا يمكن

(1)- محمد علي الخيري، نظام كتابة اللغات، ص 7- 8.

(2)- نفس المصدر.

(3)- الجبوري، الكتابات والخطوط القديمة، ص 75.

تصويرها. وبعد ذلك انتقلت الكتابة إلى استخدام الرموز لا للدلالة على ما تصوره من أشياء، بل للدلالة على الأصوات المصاحبة لهذه الأشياء فأصبحت الكتابة رمزية مقطعية تدل فيها الصورة لا على معنى الصورة فحسب بل على صوت مقطع يمثل وحدة لغوية ذات معنى ثم إلى كتابة صوتية تدل فيه الصورة على صوت واحد فقط .فمثلا كانت صورة البومة في بدايات الكتابة الهيروغليفية تدل على الطير المعروف بهذا الاسم، ثم أصبحت تدل فقط على المقطع الأول من اسم البوم وهو بلغتهم صوت" م " بغض النظر عن موقع ورودها.

وبعد هذه المرحلة من تطور نظم الكتابة أتى التحول الطبيعي إلى استخدام الرموز الهجائية بديلة عن الصور للدلالة على الأصوات.

ومجمل القول: فإن مختلف أنواع أنظمة الكتابة للغات الحية لا تعدو كونها أحد مراحل التطور، وبالتالي يمكن تقسيم اللغات من حيث نظام الكتابة إلى أربعة أنواع هي: التصويرية الصوتية، المقطعية، الألفبائية ثم نظام الكتابة المعتمد على الخصائص الصوتية.

ويفرق رولان بروطون Roland Breton بين ثلاثة مراحل في تطور الكتابة:

المرحلة الأولى :الكتابة التركيبية.

تمثل العلامة في هذا النظام جملة أو مجموعة من الأفكار المتضمنة في الجملة، ويتعلق الأمر بنظام تدوين للصور قريب من اللغز الرمزي (أو لغز الصورة المقروءة بأسمائها) دون أن يوصلك الرمز والعلامات إلى الأصوات، ونسجل في هذا المضمار، أنه قبل استطاعة الانسان التوصل إلى التمثيل الخطي الذي كانت الرسوم البدائية أحد أهم مظاهره، فإن التواصل بين اللغة والفكر كان يتم باستعمال أشياء محسوسة منحوتة من الخشب أو الصخر ...إلخ، ومازالت هاته الوسيلة من الكتابة مستعملة لدى بعض الشعوب التي تعتبر بدائية بمعنى من المعاني، وتمثل الكتابة التركيبية مرحلة الانتقال من الملموس إلى المجرد.

المرحلة الثانية :الكتابة التحليلية

وهي تسجل حالة الانتقال من الجملة الشاملة إلى تقسيمها إلى عناصر أكثر بساطة، وهي الكلمات، وتصلح كل علامة لتكون في مقابل الكلمة) يحيلنا لفظ" كلمة "على وحدة دلالية(، ولا تكون لهذه العلامة علاقة بالأصوات المكونة للكلمة.

ج-المرحلة الثالثة :الكتابة الصوتية

وهي لا تسجل الكلمات بقدر ما تهتم بتسجيل الأصوات، وقد أتاح هذا النظام لبروز عملية اقتصاد استفادت منها اللغات بحيث أصبحت تستعمل نسقًا محدودًا من رموز الأصوات المنطوقة

لإنتاج مالا حصر له من الكلمات والجمل والنصوص.

وبناء على ما أتينا على ذكره فإن أهم نتيجة للكتابة على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية هي تخزين المعلومة ونقلها، أو كما يقول بوتيرو " :Bottero 1982 لقد تم تشكيل الكتابة لكي تضطلع بهذه الوظيفة، وذلك من خلال تيسيرها وتأمينها للمعلومة بواسطة التخزين، وفي الواقع لم تجد الكتابة في شيء آخر لمدة عدة قرون بعد اختراعها(1)."

وسيكون من المفيد استثمار أفكار دوسوسير لربط الكتابة بالعلم العام الذي يشملها، فهي تدخل في إطار سيميولوجيا التواصل حيث ينبني كل تواصل إنساني أو حيواني على إثارة حسية، إذ يسجل المتلقي دعامة قابلة للإدراك، ويستخرج منها معلومة أو معنى أو دلالة، ويمكن اعتبار الدليل هو هذه الدعامة القابلة للإدراك، وهي أصغر وحدة لها معنى داخل سنن معطى، فيقول (دو سوسير)في هذا الصدد":إن العلم العام لكل أنظمة الدوال) أو الرموز Symboles (التي بفضلها يتواصل الناس فيما بينهم، هو السيميولوجيا.(2)"

أما بالنسبة لبارث Barthes الذي يستشهد (بدوسوسير) فإن موضوع السيميولوجيا هو كل نظام للدوال مهما كانت مادته ومهما كانت حدوده، مثل الصور والحركات والأصوات الملحنة والأشياء والتركيبات المعقدة ...إلخ(3).

كما يميز (جاكبسون) Jakobson بين ثلاث مستويات للدوال وهي الأيقون والعلامة والرمز، ومن جانب المنطق يمكن أن نربط هذه المستويات الثلاثة بالمراحل التي تحدث عنها بروطون Breton حين أرخ لتطور الكتابة.

أ -الأيقون والمرحلة الأولى: أن أبسط طريقة لتقديم شيء ما للآخر هي تقديم الشيء نفسه أو التمثيل لهذا الشيء، كأن تأخذ صورة له أو رسمه أو تحديد خطاطة له .والأيقونIcone هو دائما تمثيل محسوس للشيء حيث توجد بين الأيقون والشيء علاقة تشابه تفرض على الحواس، فهو يحيل دائما على مميزات خاصة بالشيء وعلى خصائصه، حيث يدرج الأيقون إمكانية إعادة الإنتاج وتمثيل الخاصيات المحسوسة لهذا الشيء .وبذلك فهو يفهم مباشرة إذا كان التمثيل مطابقا للشيء بشكل دقيق.

وهكذا، فالرابط بين الشيء والأيقون يظل الطريقة الأكثر بساطة لإيصال تجربة ما، أي إن إعادة إنتاج حركة أو نغمة الصوت أو الرسم، كل هذه الامور لها تأثير كبير على المتلقي أكثر من تأثير خطاب

---

(1)- عبد الكريم غريب، التواصل والتنشيط، ص 150.

(2)- نقلا عن جيل أمادو وأندري جينيت، دوسوبسر 1965، ص 29- 44.

(3)- بارث Barthes (1965).

طويل عليه[1]

ب-العلامة والمرحلة الثانية:

يقول المثل السائر " لا دخان بدون نار"، فتسمح غمامة الدخان باستنتاج وجود النار لأن التجربة أثبتت ذلك كما تشير علامة القدم على الرمل إلى وجود إنسان ما وتعمل العلامة بواسطة التشابه الواقع بين الدال والمدلول، إنها الدعامة الموضوعية للمعلومة وتستنتج مباشرة من الشيء . غير أن المعلومة التي تحملها العلامة ينبغي أن تكون دائما مرتبطة بتجربة المتلقي الذي يجب أن يكون قادرا على كشفها وإعطائها دلالة .فإذا كانت بعض العلامات تدرك بطريقة طبيعية كالدخان والنار، وعلاقة ارتفاع الحرارة بالحمى ... مثلا، فإن إدراك مختلف العلامات أمر نسبي. إذن، إذ توجد علامات أخرى تتطلب تعلما، وهذا التعلم مرتبط بالاهتمامات الشخصية للمتلقي في أغلب الأحيان[2].

ج-الرمز والمرحلة الثالثة:

تعني كلمة الرمز في تأصيلها Etymologie أن هناك شيئا مقسما إلى جزأين، حيث يحتفظ كل من الجزأين بالنصف، ويتضمن الرمز إذن فكرة العلاقة والهويةIdentité ، فهو يسجل العلاقة ويسمح بالتأكد من شيء ما، ويتمثل الرمز كدليل منتج من طرف الأفراد ليكون بديلا لشيء ما أو علاقة ما.

ويصنع الرمز دائما بوساطة التماس الذي يتم تعلمه، والمؤسس بين الدال والمدلول حيث الربط هنا بين الدال والمدلول هو القاعدة .إنه اتفاق معترف به من طرف مجموعة اجتماعية وهو غير مرتبط بتشابه ما (كما هو الحال بالنسبة إلى العلامة)

غير أنه في الترميز الاجتماعي والثقافي، يمكن أن يوجد رابط طبيعي بين الدال والمدلول، فالميزان مثلا، هو رمز للعدالة بفعل التشابه، لكن يصعب أحيانا إيجاد الرابط مثلما هو الأمر عليه في الحمامة التي ترمز إلى السلام .وتقدم هذه الرموز على الأقل علاقة طبيعية شيئا ما؛ لأنها ممكنة الوجود في مجموعات ثقافية مختلفة.

وعلى العموم، فبالنسبة لليفي شتراوس Lévi Strauss (1968) فالرموز تسمح بالتعبير عن شيء ما مجرد (شيء من العالم المعنوي مثل الموت، الثروة) بوساطة شيء ملموس وقابل للإدراك.

فكل الشعارات Emblémes وكل الأوصاف Attributs وكل الشارات Insignes وكل ما يدل على الهوية (الكتابة مثلا) يمكن اعتباره رمزا.وغالبًا ما ترتبط هذه الرموز بالمضامين الذاتية وأحاسيس الأفراد والمجموعات الثقافية.

---

(1)- عبد الكريم غريب، التواصل نظريات ومقاربات، ص 192 – 193.

(2)- نفس المصدر.

وقد حاول علماء الاجتماع الربط بين هذه الرموز والخاصيات الاجتماعية، كما حاولوا استخراج المبادئ العامة التي تحدد تنظيم هذه الرموز فيما بينها .ويضيف ليفي شتراوس بأن كل رمز مدمج في مجموعة مهيكلة ابتدعت النظام الرمزي، حيث كل ثقافة يمكن اعتبارها أنظمة ترميزية وعلى رأسها يوجد الكلام الإنساني وقواعد الزواج والعلاقات الاقتصادية والفن والعلم والدين.(1)

2- الكلام الإنساني و الدليل اللغوي

إن الدليل اللغوي Signe linguistique لا يربط شيئا objet باسم nom وإنما يربط مفهوما Conceptبصورة أكوستيكية Image acoustique ويمكن تمثيل ذلك على بالشكل الاتي:

$$\text{الدليل اللساني} = \frac{\text{صورة صوتية}}{\text{مفهوم}}$$

حيث تشكل الصورة الصوتية الدال ويمثل المفهوم المدلول، وهكذا، فالدليل اللغوي هو وحدة ذات وجهين وهما الدال والمدلول.

أما علاقة الدليل اللغوي بالواقع، فهي علاقة اعتباطية حيث لا يوجد أي رابط، إلا رابط الاتفاق، بين الدال" شجرة "والشيء الذي تشير إليه هذه المتتالية الصوتية" ش، ج، ر، ة "، فليس هناك أي علاقة منطقية أو طبيعية تعلل هذا الدليل، إنه فقط اتفاق يتطلب تعلما، وحتى يتواصل الفرد، يجب عليه أن يخضع لهذه الاعتباطية التي بوساطتها تصير الدوال أدوات للاتصال وذلك بفعل التوافق الاجتماعي .

وغالبا ما نرى الأفراد، داخل وضعيات المجموعة، يواجهون مشكلة تحديد كلمة ما، يحتكمون إلى القاموس، في حين يتضمن تعريف كلمة ما سلسلة من الإحالات إلى كلمات أخرى للسنن، سواء تعلق الأمر بالمترادفات أو بالمتضادات، فمن الضروري إقامة القاموس من جديد للوصول إلى مسألة طوطولوجية(2)في كل مرة.

إن المرجع النهائي والمدلول النهائي غير قابل للحجز ما دام يتطلب دلالة واضحة للحقيقة، أي مرجعا غير قابل للنقاش .فمعنى كلمة ما مرتبط بالاتفاق .والسؤال المطروح هنا هو :من سيحدد

---

(1)Levi Strauss c, « Introduction à l'œuvre de Marcel Mauss « la Mauss, Sociologie et autropologie, Paris, PUF. 1968

(2)الطوطيولوجية لغويا مصطلح إغريقي بمعنى "قول الشيء نفسه"

الاتفاق؟ ومن له الكلمة الأخيرة؟ [1]

2-1 الكلام الإنساني و المعايير الاجتماعية :

إن اللغة كمنتوج لمعيار اجتماعي، هي نظام تطوير حيث يتم إبداع كلمات جديدة، واقتراض صيغ جديدة تشير إلى علاقات التأثير التي تنشط المجموعات والأفراد .أما على المستوى السوسيولوجي، فكون اللغة تقوم باستعارات من لغة إلى أخرى، فإن هذا الأمر يفسر علاقة التأثير، وهذه العلاقة غالباً ما تكون علاقة سيطرة وأما على مستوى المجموعات، فمن المهم دائما تسجيل أنواع الاستعارات التي تقوم بها المجموعة الاجتماعية حيث ستكون هذه الدوال علامة على الرغبة في التشابه والمماثلة مع المجموعة الاجتماعية المرجع، أي المستعار منها.

غير أن المجموعة التي ترغب في تأكيد هويتها وقيمها الخاصة، ستنتهي بإبداع كلام شخصي.

المعنى الدلالة

علاقة التعلم علاقة الدلالة

المرجع المدلول علاقة التناوب الدليل الدال

وحسب فرويد[2] freud 1970 فإن كان الكلام الإنساني يسمح بالتخلص من ذاتية الانفعالات وإذا كان يخلق إشارات ترميزية يعود إليها الطفل باستمرار، فإن وعيه هذا يجعله ينغلق في شبكة من الدلالات، وهذه الشبكة هي وسطه الترميزي والثقافي في التواصل .

فالطفل يتقيد داخل عالم من الدلالات ويندمج في نسيج اجتماعي ويتشبع بالدوال والثقافية للمحيط الذي يعيش فيه .وهذه اللغة التي يحاول، تدريجيا واتقانها، تحمل مجموعة من القيم والقواعد التي سيستبطنها في الوقت نفسه .فاللغة كنظام اجتماع، تحمل مجموع الثقافة والمعارف savoirsوالإيديولوجية .وهكذا، فخطاب الفرد سيحمل أيضا سمة تاريخيه وتاريخ المجموعة التي تستعمل هذه اللغة .ومن هذا الواقع، لا يمكن للكلام الإنساني أن يطمع في تمثيل دقيق لما يحاول التعبير عنه .فالكلام الإنساني سيظل دائما غير قادر على خلق توافق بين سجلين Registes أي معيش المتكلم والترتيب الترميزي للغة[3] .

فالدال والمدلول شبكتان من العلاقات لا تلتقيان دائما بشكل دقيق لأن هناك التواء Distorsionيفرق بين الكلمة ودلالتها .لذا وعلى الرغم أن الكلام الإنساني هو أداة خاصة للتواصل،

(1)المرجع نفسه ، ص، 198

(2)Freud.S. essais de psychanalyse, Paris, Payot, 7ed, 1970

(3)عبد الكريم غريب، المقاربات، ص، 197-198

يمكن أن يكون خدعة Leurre أمام التفاهم بين الناس والحقيقة.

إن هذه الملاحظة تتكرر كثيرًا في الوضعيات التجريبية، فعندما تجد المجموعة أصالتها، ستوسم هذه الأصالة بمعجم خاص Vocabulaire وباستعمال بعض التلوينات في الجملة.

وتشتغل هذه الكلمات ككلمات السر وكسنن خاص .ومن لا ينتمي إلى هذه المجموعة ولم يعرف تاريخها، يجد نفسه مقصيا، وهكذا، فكل مجموعة تريد تأكيد هويتها، تنتهي بخلق كلام خاص بها، فأفراد العصابة والمنتمون لمعهد البولتكنيك، يمتلكون كلاما خاصا يميزهم عن المجموع ويسهل الاعتراف بهم وتأكيد هويتهم.

وبالمقابل، إذا رفض شخص ما الاندماج في المجموعة الاجتماعية سيرفض أولا الدوال المنتمية لهذه المجموعة وخاصة اللغة، ومثلا، سيقوم بعض المراهقين بقلب المقاطع Syllabes داخل الكلمة، ويستعملون بطريقة منتظمة الكلمات المحظورة ويبتدعون كلمات جديدة، وهذا سيترجم رفض الاندماج إلى تغيير الكلام المعيار(1) .

وبذلك ستكون هذه الكلمات مؤشرات مهمة لمختلف التأثيرات التي تتعرض لها المجموعة الاجتماعية والفرد، وبنفس الطريقة سيكون مهما تحليل الكلام الإنساني لتنظيم ما، فالوسط التقنوقراطي سيلتزم بكلام تقنوقراطي، والوسط البيروقراطي سيفرز كلاما بيروقراطيا.

فالكلام يقوي دائما التباعد Clivages الاجتماعي.

إن أحد أهم تحاليل دور الكلام الإنساني هو الذي قام به بورديو وباسيرون Bourdieu et(2) Passeron في دراستهما حول" إعادة الإنتاج "في النظام المدرسي .فإذا كان الولوج إلى الثقافة والمعرفة يعتبر كعامل للمساواة الاجتماعية، فإن هذين المؤلفين قد وضحا أن التواصل البيداغوجي، كما هو منظور "إليه في النظام المدرسي، هو عامل مهم للانتقاء .الاستقرار الاجتماعي بالطبع، فإن الحصيلة الإعلامية للتواصل البيداغوجي هي دائما وظيفة اشتغال القدرة اللسانية للمتلقي .فالنموذج اللساني ذو القيمة في الفصل هو كلام المعلم، وهناك فسحة مهمة تفصله غالبا عن الكلام الذي ينطقه الأطفال في وسط شعبي .فيجدون أنفسهم خاضعين لمعيار لساني وثقافي بعيد جدا عن نظامهم المرجع الخاص، وبما أنهم يفتقرون إلى سنن ضروري لتلقي الرسالة، فهم يرسبون أكثر من أطفال العائلات الميسورة التي تتوافر على معيار أقرب إلى معيار وسطهم الاجتماعي.

2-2 اللغة و الكلام:

---

(1) المرجع نفسه، ص، 200.

(2)Bourdieu. P, Passeron.J.C, La reproduction, Paris, et de minuit, 1970

لقد اقترح دوسوسير تمييزا بين الكلام الفردي Parole واللغة Langage واللسانLangue ، فالكلام الفردي هو نشاط المتكلم الذي يتمظهر من خلال الإنجاز اللغوي، بينما تعد اللغة تلك السمة التي يفطر عليها كل كائن بشري، أما اللسان فهو ذلك التمظهر اللغوي الخاص بعشيرة لغوية معينة) كأن نقول اللسان العربي أو اللسان الفرنسي... إلخ .(وتتميز اللغة بأنها نظام من الدوال ومن مجموع قواعد التأليف لأنها تشتغل كأداة للتواصل داخل ثقافة معينة، ولهذا فهي تقدم جانبا اجتماعيا يميل إلى ثقافة ما وجانبا معيارا لأن نظام اللغة يفرض على الفرد.

وعليه فكل دراسة لأنواع التواصل، لا بد وأن تأخذ بعين الاعتبار هذه المعطيات، فاللغة اتفاق يستجيب لبعض القواعد، والكلام معناه الخضوع لهذه القواعد، ويتفاعل المعياري والإبداعي أي القواعد القارة ومستجدات اللغة داخل سيرورة التواصل باستمرار، وفي هذا الصدد يقدم سابير Sapir تعريفا خاصة به للغة بنى على أساسه تصوره الخاص للعلاقة بين اللغة والمجتمع .إن اللغة في نظره " أكثر من تقنية بسيطة للتواصل[1] "إنها أداة قوية للتنشئة الاجتماعية Socialisation في استقلال عن الوظيفة الحرفية للوظيفة[2] .، بل إنها بحسب تعبيره " قوة للتنشئة الاجتماعية والوحدة وهي أقوى العناصر المساهمة في نمو الفردانية[3] "

والعلاقات الاجتماعية لا يمكنها أن توجد من دون هذه الأداة، ويستنتج سابير أن اللغة هي الدليل القاطع على التضامن الذي يجمع بين مستعملي اللغة نفسها .إن اللغة، حسب سابير وهو يوافق سابقيه هيردر وهمبولدت، تلعب دورا حاسما وأوليا في تجميع الثقافات وتخزينها، لنقلها بعد ذلك إلى الأجيال المقبلة .

واللغة تكيف بقوة كل فكرنا وتكون بذلك أكبر دليل على الواقع الاجتماعي وقد حاول وورف Whorfأن يجد في لغات الهنود الحمر التي كان يتقنها ما يدعم بالملموس أفكار أستاذه سابير. وقناعاته، وقد حصل له ذلك عبر تحليله الدقيق لبنيات اللغات الهند وأمريكية كاشفا بذلك عن دور اللغة في تحديد العالم الخارجي وإدراكه .ويتفق وورف وسابير على افتراض أساس مفاده أن المعرفة التي يملكها شعب ما عن العالم تحدد بالنسبة إلى لغته[4].

ويطلق كثير من الباحثين على آراء كل من وورف وسابير اسم النظرية اللسانية النسبية

---

(1)إدوارد سابير، Edward Sapir, La linguistigue , P . 43

(2)نفسه، ص،42

(3)نفسه، ص،44

(4)Whorf, linguistique et anthropologie

Linguistique Relativisteأي إن كل لغة هي رؤية خاصة للعالم الخارجي .إن معرفة العالم الخارجي ليست معطاة كليا وموضوعيا باستقلال عن الأفراد والمجتمعات ولكنها تتحدد من خلال كيفية تصور اللغة لهذا العالم الخارجي، إن إدراك العالم الخارجي يظل مرهونا باللغة المتكلم بها، وذلك بحسب قدرة كل نسق لغوي على تصور هذا العالم الخارجي .ويعرف تصور وورف وسابير أيضا بالحتمية اللسانية Détérminisme Linguistiqueباعتبار أن اللغة هي التي تحتم علينا تحديد الفكر وتقدم لنا بالضرورة هذه الصورة عن العالم الخارجي وليس تلك.

وعودة إلى اللسان Langue، فهو في أبسط تعريف له إنه" نظام من العلامات المعبرة عن أفكار "[1]، وإذا أمعنا النظر في هذا التعريف فإننا– حسب الباحث مصطفى غلفان – نجد أنفسنا مضطرين مبدئيا لإدماج اللغة البشرية [2] Langageفي عدد كثير من الأنظمة التي لها الطابع التواصلي نفسه المتمثل في نقل معلومات معينة أو التعبير عنها بكيفية أو بأخرى مثل :الكتابة وأبجدية الصم البكم وقانون السير وقانون الملاحة وشيفرة مورس Morseودليل الخرائط والرسوم البيانية ونظام الاتصال السلكي واللاسلكي واللغات الإعلامية والبرمجة واللغات الاصطناعية من لغة المنطق والرياضيات وكل أشكال الآداب والمجاملات، فهذه جميعها أنظمة تواصل بالاصطلاح والعرف ووظيفتها الأساس" نقل أفكار بواسطة رموز[3] "

ويقترح دوسوسير لدراسة هذا النظام التواصلي العام القائم على العلامات Signes علما جديدا يسميه السميولوجيا Sémiologie تكون وظيفته" دراسة العلامات في حضن المجتمع"، يقول دوسوسير "يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة العلامات داخل المجتمع سيشكل جزءا من علم النفس وبالتالي من علم النفس العام سنسميه السيميولوجيا[4] "

وقد اعتبر دوسوسير أن اللسانيات بوصفها دراسة علمية للغة ليست سوى جزء من السيميولوجيا Sémiologie باعتبارها دراسة العلامات والرموز بصفة عامة، وبالتالي فإن القوانين العلمية التي ستكشف عنها السيميولوجيا ستطبق أيضا على اللسانيات.

أما رولان بارث R.Barthes فقد عكس العلاقة التي أشار إليها دوسوسير بين اللسانيات والسيميولوجيا معتبرا أن السيميولوجيا جزءاً من اللسانيات، لأن كل نظام تواصلي غير لغوي، لا يمكنه

(1)De.Saussure. F, Cours de linguistique générale, p.34

(2)مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، ص. 61 وما بعدها

(3)نفسه.

(4)سوسير، ص،34

أن يكون إلا لغة Langage

وعلى هذا الأساس، فإن المطبخ والأزياء والإشهار والسينما أنظمة لا يمكن التعبير عن طبيعتها السيميولوجية إلا بواسطة اللغة .يقول رولان بارث" : من المؤكد أن الأشياء والصور والسلوكات يمكنها أن تدل على شيء ما وهذا ما تفعله بكثرة، ولكن ليس ذلك أبدا بشكل مستقل، إن كل نسق سيميولوجي يمتزج باللغة .فالعديد من الأنظمة السيميولوجية لا يمكنها أن ترق إلى مستوى الأنساق مرورا باللسان . ومن الصعب أن نتصور نظاما من الصور والأشياء يمكن لمدلولاتها أن توجد خارج اللغة، يجب أن نتقبل منذ الآن إمكانية عكس اقتراح سوسير يوما ما، إن اللسانيات ليست جزءا ولو كان متميزا لعلم العلامات العام، إن السيميولوجيا هي الجزء من اللسانيات الذي يتكفل بالوحدات الكبرى الدالة في الخطاب[1] "

ويعرف بويسنس Buyssensالسيميولوجيا بأنها دراسة الإجراءات التواصلية، أي الوسائل المستعملة للتأثير في الآخر والمنظور إليها بهذه الصفة من طرف من نريد التأثير فيه[2].

ولم يحدد دوسوسير ما يميز اللسان عن غيره من أنظمة التواصل .وتولى البحث في الموضوع كثير من اللسانيين من بينهم لويس بريتو Prieto وبويسنس ورولان بارث الذين جعلوا من البحث السيميولوجي مجالا معرفيا هاما، كان له الأثر الكبير في الدراسات الأدبية وغيرها .بيد أن علماء السيميولوجيا يختلفون فيما بينهم، إذ يصرح مارتيني Martinet في هذا الصدد بأن " لفظ لسان يجب أن يحتفظ به للدلالة على كل أداة للتواصل ذي التمفصل المزدوج .[3] "إذ في رأيه يعد التمفصل المزدوج علامة فارقة بين اللغات البشرية وما عداها من أنظمة التواصل.

ورغم ذلك فإن التعريف السابق للسانLangue ، كما يؤكد مصطفى غلفان، يدفع إلى طرح العديد من الأسئلة المهمة المتعلقة بطبيعة اللغة البشرية Langage كما نتداولها، ومن بين هذه الأسئلة:[4]

- كيف يمكن التمييز بين ما هو لغوي، وما هو غير لغوي؟
- إذا كان اللسان نظاما من العلامات، فهل يكون كل نظام من العلامات لسانا؟
- ما السمات المميزة للغة البشرية عن غيرها من الأنظمة التواصلية؟
- ما السمات المشتركة والمختلفة بين مجموع هذه الأنظمة؟

---

(1)Barthes. R, Elément le sémiologie in communication.P .2

(2)إيريك بويسنس، السميولوجيا والتواصل، ص،14.

(3)Martinet.A, Langue et Fonction, p. 43

(4)مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة، ص. 63.

- هل تدخل لغة الحيوانات في إطار السيميولوجيا؟
- هل نعد كل نظام من العلامات ذات العلاقة الاعتباطية لسانا يدخل في مجال البحث اللساني؟

هذه مجموعة من التساؤلات الإشكالية التي نروم الإجابة عنها بشكل مستفيض في القادم من أبحاثنا .

المراجع و المصادر

-ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1960.

-ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،. 1960

-حسان ، تمام ، العربية معناها و مبناها ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ،. 1973

-دوسوسير، فردناد، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة قنيني، عبد القادر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء،.1987

-رولان، بارت، مبادئ في علم الأدلة، ترجمة محمد البكري، دار قرطبة للنشر بالدار البيضاء.

غريب، عبد الكريم، التواصل والتنشيط الأساليب والتقنيات، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2008.

Barthes. R, (Elément De sémiologie) in communications no 4 , Paris , Seuil , 1966 .

- Freud .S, Essais de psychanalyse, Paris, Payot, 7ed, 1970 .

- Sapir , Edward , La linguistique , Paris , Editions de Minuit ,1968 .

- Saussure. F (de), Cours de linguistique générale, édition critique préparée par Tullio de Mauro , Paris , Payot , 1916 / 1974 .

- Whorf Benjamin Lee, Linguistique et anthropologie, Les origines de la sémiologie . Paris , 1969 .